

كتاب المقتبس وميزان النقد التاريخي

أ/ ورّاد طارق

قسم التاريخ جامعة تلمسان

لم يكن النقد التاريخي مما اهتم به أبو مروان بن حيان القرطبي كثيرا في كتابه المقتبس إذا ما عارضنا ذلك بالتحقيق التاريخي عنده فيه؛ وذلك في طبيعة المؤلف أمر مفهوم، فكتاب المقتبس مجموع قائم على مقتبسات التاريخيين الأندلسيين، التي تضمنت في ثناياها جوانبا – وإن قلت – من النقد التاريخي والأدبي لكتابها، نزع أبو مروان إلى إيرادها بشيء من المغايرة في اللفظ وبعض زيادات المعاني. فقلة تدخلات النثرية الخالصة في هذا المؤلف توافقت وقلة هذه النقود المذكورة المنسوبة إليه؛ لكننا مع ذلك نلاحظ في كل ما كان من كلام تاريخي أو أدبي حياني محض جانبا كبيرا من المادة الفكرية الحيانية المبينة لملكة قوية في باب النقد.

1- أصول النقد التاريخي عند ابن حيان:

حوى المقتبس مادة تاريخية نقدية لا بأس بها، أظهرت من ابن حيان حسا نقديا مميّزا، قد عري منه الكثير من التاريخيين الأندلسيين وغيرهم، وقد وجدناه في بعض المواضع يجنح إلى أنواع من التأصيل المنهجي النقدي الذي أظهر فيه تميزا وإنفرادا عن أقرانه، وقد ظهر اعتناؤه بالنقد التاريخي في مستويين هامين: مستوى نقد الرجال والجماعات، ومستوى نقد الأحداث، لكن أكثر شخصيته التاريخية الناقدة برزت في مستوى ثالث نظري تمثل في أوجه نقد الرواية التاريخية والتي بها نعرف أصوله في نقد التي بنا عليها منهجه التاريخي العام.

2- أوجه النقد للرواية التاريخية:

يظهر هذا الجانب التأصيلي عند ابن حيان من خلال نقده للرواية التاريخية إسنادا وممتنا، وكان ميله لنقد الإسناد أظهر منه في نقد المتون على طريقة المحدثين، مما يعرف عندهم بعلم الجرح والتعديل، وإن لم ينظر إليه نظرتهم شديدة التحقيق، إلا أنه في العموم قد سار على منوالهم؛ فرجال التاريخ عنده طبقات غير متساوية الرتبة والحال، بعضها حقه التقديم في الرواية الخبرية، وبعضها الآخر حقه التأخير، كما أن بعضها حقه التضعيف، وبعضها الآخر حقه التوثيق. لأجل هذا يمكننا أن نميز عند ابن حيان عدة مستويات في نقد رجال الرواية التاريخية

وهي: مستوى نقد التوثيق، ومستوى نقد الترجيح، ومستوى نقد التجريح.

أما مستوى **نقد التوثيق**؛ فقد اعتنى به ابن حيان فيما أورده من مروياته الخاصة، ومرويات أصحاب مقتبساته. أما توثيقاته الخاصة فوجدناه يجنح فيها إلى ثلاثة أوجه من الصياغة، فإما أن يوثق صاحب الرواية توثيقاً ضمناً لا تصريح فيه، كما في أخباره عن سطوات عبد الرحمن الناصر التي أوردها بصيغة الجزم عن روايتها الذين قدم لهم بقوله: «ما سمعته من المشيخة الدانية بفتنهم من تلك الدولة... ما حملوه عن خواص من أكابر خدمة الخصيان ساكني داره ومشاهدي غيبه»¹، وقوله: «ولحقت مشايخ من الناس خبروا...»²، فهو يوثق هنا الرواة والرواية باتفاق الجمع من المشايخ أو الخصيان على روايتها، المتميزين بالقرب من صاحب الحدث أو المعانين له، والمنتمين في الولاء إليه ممن يبعد في العادة قدحهم فيه افتراءً.

كما قد يوثق راوي الخبر بنص غير صريح فيه، إما وصفاً له أو حكماً عليه في غير صفة الرواية، مما يشعر بثقته عنده، كقوله في رواية صاعد الطليطي مما اقتبسه عنه: «و كان من العلم بمكان»³؛ فهذا مشعر بثقته عنده فيما رواه أو أخبر به، إلا أنه غير صريح في الدلالة على ذلك، ونفس هذا المنهج نجده عند أحمد الرازي في قوله في أحد رواياته: «أخبرني شيخ جميل المذهب من أهل طليطلة»⁴.

كما قد يوثق راوي الخبر باللفظ الصريح كقوله في إحدى رواياته: «أخبرني يحيى بن محمد بن نعمان العطار عن أبيه، وكان ثقة»⁵، وهذا المنهج في التوثيق الصريح نجده ماثلاً عند جمهرة التاريخيين الأندلسيين، ذوي النزعة التاريخية والأدبية على حدّ سواء، وإن كان قد تميز من بينهم فيه كل من أحمد الرازي⁶، والقبشي⁷.

أما مستوى **نقد الترجيح**؛ فهو نقد لرجال الرواية الإخبارية من خلال ترجيح بعضهم على بعض، وأوضح مثال على ذلك عنده قوله في معارضة رواية ابن القوطية والقبشي من جهة، ورواية الشبيني من جهة أخرى في مشاركة الوزير يوسف بن سبيل وصول الأمير محمد بن عبد الرحمن إلى إمارة الأندلس: «ومعاوية (يعني الشبيني) أثبت معرفة بأخبار قومه»⁸، فهو هنا رجح رواية الشبيني على رواية معارضيه فيما إختص بأخبار المروانية بالأندلس، على أن هذا الترجيح نسبي عنده إنما يختص بأخبار المروانية فقط، وعلل ابن حيان ذلك بقوله أنه أعلم بأحوال آل بيته، وهذا مما لا يخالفه فيه أحد؛ فالشبيني باعتباره مروانياً ومن أبناء أمراء المروانية قد جالس رجال هذا البيت وخالطهم وعرف أحوالهم، واطلع على ما لم يطلع عليه

غيره من خفائهم، كل ذلك جعله أثبت التاريخيين الأندلسيين فيما ينقله فيهم، فأما إذا عرض إلى غير أحوال البيت المرواني طلب ابن حيان غيره، كما فعل في أخبار العلماء والشعراء قدم عليه ابن الفرضي وغيره لثقتهم بهم في هذا الباب.

و من الجدير أن يلاحظ هنا أن ابن حيان قد استعمل في منهج الترجيح مصطلح «أثبت»، ومعلوم شائع أن هذا المصطلح من خصوصيات علم الجرح والتعديل عند المحدثين؛ وكأما اقتبس هذا منهم ووظفه في الرواية الإخبارية التاريخية مؤصلاً بذلك لفن مصطلح التأريخ بالأندلس، على الرغم من أنه قد سبق في مصطلحات أخرى أوردها التاريخيون الأندلسيون.

أما مستوى نقد التجريح، فهو نقد لرجال الرواية الخيرية التاريخية من حيث ضعفهم الكلي أو الجزئي، ومن حيث قبول رواياتهم كلياً أو جزئياً، أي التضعيف المطلق أو الجزئي للرواية.

فمن الوجه الثاني ونعني به التضعيف الجزئي، قوله في خبر للشبيني: «وقد زعم معاوية بن هشام الشبيني نسبة القوم وابن عمهم بأن القاسم بن محمد (يعني ابن الأمير محمد بن عبد الرحمن) كان كثير الشعر، يكاتب بالأبيات محمد بن عبد العزيز الشاعر المحسن في وقته»⁹؛ فإن لفظ «زعم» مشعر أن ابن حيان قد ضعف هذا الحكم النقدي من الشبيني، ولم يرتضيه منه؛ وسببه أن ابن حيان لم يكن يرتضي الأحكام النقدية على الأشعار التي يوردها الشبيني¹⁰، على الرغم من ثقته به فيما أورده من أخبار البيت المرواني، وهذا تضعيف له في بعض جوانب الرواية والتحقيق.

وأما الوجه الأول؛ وهو الأصيل في هذا الباب، فأوضح أمثلته التضعيف المطلق والمزدوج الذي وصم به أبو مروان مصدره عبادة الشاعر، فقد قال فيه في إحدى رواياته مما تعلق بأخبار البيت المرواني: «ومن دواهي أصحاب الخبر القاذفين بالغيب، المقتحمين على الريب، ما أصبته لأبي بكر عبادة بن عبد الله الخزرجي الشاعر، وبخطه في غض هذا الأمير الجزل محمد بن عبد الرحمن يعزوه إلى الكثير من ثقات دولته، على أنه هو وسلفه لم يزالوا أظناء في بني مروان ناكبين عنهم، قد جاهرُوا لهم بالخلاف عليهم، فما إن يؤمن مع ذلك على الاختلاق لمعايهم، والتنبث عن مساوهم، و ذلك أنه ذكر...»¹¹ و ذكر خبر كلف الأمير بالزمر والزمارين.

إن هذا النص يظهر لنا بجلاء ركائز النقد التاريخي للرجال ورواياتهم الإخبارية عند أبي مروان، وقد حمل من الفوائد حول المنهج التاريخي الحياني ما لم تحمله المسودات من مقتبساته.

لقد حمل هذا النص نقدين أحدهما في رجال الرواية التاريخية أو ما نسميهم بالإخباريين ويسميهم هو «أصحاب الخبر»، والثاني في عبادة الشاعر وآل بيته من الإخباريين، ومجموع النقاد ينحو إلى نقد الشاعر التاريخي عبادة نفسه، وتجريحه في جانب من روايته الإخبارية. ومعنى أوضح إن ابن حيان قد استخدم هنا ترتيباً منطقياً في نقد مُمنهج قدم له بثمانية مقدمات بعضها كلي وبعضها جزئي، وصولاً إلى نتيجة جزئية هي الطعن المباشر في رواية عبادة، وتدرج معها نتيجة كلية هي الطعن أو التجريح لرواية الإخباريين المتعلقة بمخالفهم أو منابذهم.

و لاستجلاء هذا الترتيب المنطقي قمنا بدراسة و تحليل هذا ، وتوصلنا إلى أنه يشتمل على أربع مقدمات كلية هي:

- 1- قوله «ومن دواهي» مقدمة كلية تفيد أن للإخباريين دواهي من الروايات.
 - 2- قوله «أصحاب الخبر»، مقدمة كلية تفيد أن الإخباريين مهتبلين بعلم الرواية دون علم الدراية.
 - 3- قوله «القاذفين بالغيب»، مقدمة كلية تفيد أن الإخباريين يكثرّون الخوض فيما لا يعلمون أو يتحققون منه.
 - 4- قوله: «المقتحمين على الريب»، مقدمة كلية تفيد أن الإخباريين لا يتخرجون من اقتحام ما فيه ريبة وشك من الأخبار.
- كما اشتمل على أربع مقدمات جزئية هي:
- 1- قوله «يعزوه إلى كثير من ثقات دولته»، مقدمة جزئية تفيد الطعن في مستند رواية عبادة على سبيل التهكم.
 - 2- قوله: «على أنه هو وسلفه أظناء في بني مروان»، مقدمة جزئية تفيد إثبات العداوة بين آل عبادة وآل مروان.
 - 3- قوله: «ناكبين عنهم»، مقدمة جزئية تفيد إثبات بعد ما بين آل عبادة وآل مروان، وانحرافهم عنهم.
 - 4- قوله: «قد جاهرُوا لهم بالخلاف عليهم»، مقدمة جزئية تفيد إثبات المنابذة العلنية بين آل عبادة وآل مروان.
- فكانت النتيجة من هذه المقدمات الكلية والجزئية نتيجتين، إحداها كلية غير منصوص عليها

لفظاً، وأخرى جزئية منصوص عليها لفظاً:

فالثانية قوله: «فما أن يؤمن مع ذلك على الاختلاق لمعايهم، والتنبث عن مساويهم»، ويفيد معنى هذه النتيجة الجزئية عدم القبول والطعن في رواية عبادة الشاعر وآل بيته في المروانية، مما يفيد تنقيصاً لهم أو ازدراء لحقهم.

وأما الأولى غير المنصوص عليها؛ فمفهومة من لفظ النتيجة الجزئية السابقة على سبيل مفهوم الموافقة من باب أن إثبات الحكم للجزء لزم اثباته للكل، وهي أنه لا تقبل رواية الإخباري في عدوه أو مخالفه، إذا ما ظهر منها تنقيصاً أو ازدراء أو ما أشبهه، مع مخالفة العادة والمعلوم عنه، أو انعدام رواية أخرى موافقة لها.

إن الناظر في هذه المقدمات المنطقية ونتائجها التي خرج بها ابن حيان مما لا يخالفه فيها أحد، بل هي دون شك إحدى الركائز القديمة التي ارتكز عليها علم الحديث عند أهله، فهي من حيث المقدمة والنتيجة صحيحة المبدأ النظري، لكن من حيث التطبيق على الرواية الإخبارية التي أوردها ابن حيان عن عبادة لم تكن بتلك الموقفة، ذلك أن أصل الخبر الذي وردت فيه وهو كلف الأمير بالزمر والزمارين محتمل الصدق جداً، إذ شهد له خبر آخر أورده ابن حيان نفسه في المقتبس هذا، وهو خبر الوزير هاشم بن عبد العزيز وشرحيل الزامر صنيعة الأمير محمد، والذي رواه عن القبشي، وفيه في وصف شرحيل قال: «وكان أثراً لديه ممن يلهيه، وكان يرجع إليه إلى خصال محمودة»¹²، وسياق هذا الخبر وموضوعه يدلان دلالة واضحة على حظوة هذا الزامر وقربه من الأمير محمد، وهذا مما يعضد أصل رواية عبادة التي طعن فيها ابن حيان دون صواب فيما يبدو.

على أن ابن حيان لم يلتزم دائماً منهجه النقدي هذا في كل روايات عبادة الشاعر؛ ففي رواية خبر الشريف دحون المرواني أنه منعه الأمير عبد الرحمن بن الحكم من نشر العلم في المسجد الجامع بقرطبة قائلاً له: «إنك جد كسر من قريش و منا بحيث تعلمه، ولا يصلح هذا الأمر بك فدعه»¹³. فهذا الخبر أولى بالشك من الخبر الأول لعبادة، فالرواية عارية الإسناد كما أنه ورد ما يخالفها من خبر القاضي إبراهيم بن العباس المرواني الذي كان يجلس للقضاء بين الناس في بيته، وإن جاريته لتنسج في كسر البيت¹⁴، و ذلك في زمن الأمير عبد الرحمن بن الحكم.

كما نجده يغفل نفس هذا المنهج النقدي في كتابه المتين في ترجمة الفقيه ابن حزم، حيث

أورد فيه طعنا في اختلاقه نسبه الفارسي من بعض من لم يسمه¹⁵، ومعلوم أن ابن حزم لمذهبه وشدته قد جمع من خصومات الرجال ما لم يجمعه أحد قبله في بلده، فكان الأحرى بابن حيان أن يطرد منهجه هذا فيما قيل فيه ، ولكننا وجدناه يتنكب تلك المحجة الصائبة، والله أعلم بغرضه في ذلك،

وعلى كل حال، فإن الوضع النظري الذي وضعه ابن حيان، وعلى الصيغة التي قدمها يدلان على تمكن منهجي نقدي متين وأصولي، والحقيقة أنه لم يكن الوحيد في مضمار النقد والتأصيل النقدي للروايات الإخبارية ورجالاتها؛ فقد رافقه على هذا الدرب جماعة من معاصريه أمثال ابن حزم¹⁶ و ابن عبد البر¹⁷، ممن شغل بالكتابة النظرية والتطبيقية لهذا الضرب من فنون التأريخ، كما سبقه أحمد الرازي والقبشي والخشني وغيرهم؛ فالمدرسة التاريخية الأندلسية قد عرفت صيغ التوثيق والتجريح مبكرة، وإن كانت لم تضع لها اصطلاحا ثابتا، أو أنها لم تر في ذلك حاجة باعتبار وجود اصطلاحات المحدثين، التي كانت تغني عن إحداث اصطلاحات أخرى لعلم التأريخ.

ب- نقد الرجال و الجماعات: وهو نقد ذي صبغة تاريخية ينحو به ابن حيان نحو إصدار الأحكام الخلقية من مدح وذم وتخطئة وتصويب لأعمال الأفراد والجماعات، على اختلاف طبائعها، ومستوياتها الاجتماعية أو العلمية.

وقد برز القلم الحياني بشكل ملحوظ وموفق أحيانا في هذا المضمار، ويمكن لحظه على مستويين هامين: مستوى نقد الرجال، ومستوى نقد الجماعات.

[?] - نقد الرجال: لم يتخلف ابن حيان عن منهجه الصارم في إصدار رأيه على الرجال مما انتحاه في مؤلفاته، فنجدته في مقتبسه يميل إلى ذلك الضرب من التأريخ الذي تنكفه الكثير من الأندلسيين؛ فهو على بعد الشقة بينه وبين رجال تاريخه المقتبس إلا أنه لم يتأثم من إصدار الأحكام الخلقية عليهم بطريقتين مختلفتين هما:

- 1- تضمين الأخبار المقتبسة ما يذكر بعض معاييبهم، فيكون حكما عليهم على وجه التضمن.
- 2- الحكم المباشر على أشخاصهم بذكر معاييبهم صراحة دون تجميل لأحوالهم مهما عظموا في أعينه أو أعين غيره.

ونجد هذا الوجه الثاني بصورة ملحوظة في الأحكام على أحوال الأمراء المروانية؛ فهو يخصص

لبعضهم بابا للذم¹⁸ كالنقد لهم، جمع فيه ما وجده من أخبار تنعى عليهم بعض صفاتهم الخلقية الذميمة. وهو أحيانا إذا لم يجد للأمير ممن سبقه ذكرا لمعايبه بحث له في رواياته الخاصة ما أغفله غيره في ذلك، إثارا للنصفة في الحكم على الرجال دون تمييز بينهم؛ وقد فعل ذلك في أخبار الأمير عبد الرحمن الناصر حيث أردف فيه اقتباسا عن ابن حزم في عيبه عام اللفظ، برواياته المحققة في أخبار بطشاته أو كما سماها «فطيع سطواته» بنساء¹⁹ قصره، أو ما أربب به الناس من «فطيع المخاوف.. وذلك من أفعال الجبابة الملوك بالمشرق، ذهب إلى اقتفاء أثرهم فيها»²⁰ كما قال.

و نجده أحيانا مصرحا بالذم كما في قوله: «وصفى الملك بالأندلس للأمير الحكم، واشتد سلطانه فعتا وتجر واعتسف رعيته»²¹.

وهو لا يخلي كتابه أحيانا من انتقاد بعض سياسات الملوك الخاطئة، انتقادا لهم في أصل أعمالهم، ومن ذلك انتقاده للخليفة الحكم المستنصر من تدبير لحوق بربر العدو إليه بعدما كان معتقدا قلاهم والإزورار عنهم على مذهب أبيه، إذ كانوا بعدها كما قال الساعين في «إبطال الخلافة، وتفريق الجماعة، والتمهيد للفتنة، والإشراف بالجزيرة على الهلكة»²²، كل ذلك في تضمين خفي، وأصرح منه نقده للحكم أيضا في سوء السياسة في توريث الملك لإبنه الصغير مع وفور رجالات ومشيغة المروانية، قال: «ونظم رواة الأخبار وحملة الآثار من مناقبه ما طار كل مطار في جميع الأقطار، إلا أنه تغمد الله خطاياهم مع ما وصف من رجاحتهم، كان ممن استهووا حب الولد وأفرط فيه، وخالف الحزم في توريثه الملك بعده في سن الصبا، دون مشيغة الإخوة وفتيان العشيرة، ومن يكمل للإمامة بلا محابة، فرط هوى ووهلة انتقدها الناس على الحكم وعدوها الجانية على دولته، وقد كان يعيها على ولد العباس قبله، فأتاها مختارا ولا مرد لأمرالله»²³.

كما نجده كثير الانتقادات على رجال الدولة أيضا فيما اقتبس من المادة التاريخية عن غيره، ومن ذلك المقابلة النقدية البارعة التي اقتبسها عن أحمد الرازي بين الوزير هاشم بن عبد العزيز وعمه النكود خالد بن هاشم فيما كان لهما من محامد ومذام، ومن ذلك قوله في خالد: «وكان في ذاته أدبيا فهما نبيلًا، وفي طباعه شديد الكبر، عظيم البأ، لا يرى لنفسه كفوا»²⁴، وأمثلة هذه النقود كثيرة ومتنوعة.

كما نجده في انتقاد المخالفين للأمراء والدولة المروانية أشد غلظة وحدة، وصراحة في اللفظ،

وتكثيرا للمعائب بأعنف عبارة، وأوضح إشارة؛ فمن ذلك قوله في جعفر بن عمر بن حفصون المتغلب على ببشر اقتباسا عن أحمد الرازي: «فكان جعفر، قبحه الله، في ذاته متهورا، سخيفا، جبانا، ضعيفا، لثيما، ذميما، حسودا، حقودا، نقودا، منافسا لمن تجمل عنده، كنودا لمن استرسل إليه، مؤالفا للسفال، مستصحبا للأراذل، لم تسم به همته إلى مروة، ولا انطوت له نية على جميل»²⁵، وهو في هذا يقتبس المعنى المقصود، ويزيد عليه من عنده فيما يبدو المعاني اللاذعة في الذم والنقيصة بأقبح الأوصاف وأصرحها، مما يوحي لنا بغضه الشديد لهؤلاء نفر المفرقين والقاطعين لحبل الجماعة حتى ذهب بعض الباحثين إلى وصفه بالخروج عن الموضوعية في نعوتة التي نعت بها بعض خصوم الأموية²⁶.

على أننا لم نجد له في نقد العلماء كبير شيء نقابله الطفرة الهائلة منه في نقده لعلماء عصره في كتاب المتن، والأمر طبيعي ومفهوم، فالرجل لم يعايش من سبقوه، ولم يعرفهم حق المعرفة ليلقي عليهم سيف قلمه الناقد اللاذع.

ب- **نقد الجماعات:** وهو نقد يأتي في الغالب في خضم نقد بعض الأفراد الذين تندرج تحتهم جماعات، كما يأتي في نقد بعض الفئات الاجتماعية التي نظر إليها ابن حيان نظرة خاصة.

فجده مثلا في قضايا البربر منحرفا لإيراد الكثير من المقتبسات في غمزهم، واحتقارهم، والحكم عليهم بالأحكام الشديدة، ومنه اقتباسه عن ابن مسعود قوله: «وأنس (يعني عبد الرحمن الناصر) ببيعة سبته من جهال البرابر أشباه نعام الدوّ وأساد الغيل، استلأنوا عما قليل غرائز أهل الأندلس، وحسدوهم ما ألفوهم عليه من حسن الحال، فلم يلبثوا أن توثبوا عليهم آخر أمر الدولة بيد المقدار وثبة تركتهم أوزاعا، وسلبتهم العز والسلطان، و أركستهم في غياهب الافتتان الذي انسكبوا في عمايته، فطارت عصاهم شققا إلى آخر الزمان»²⁷،

وإذا تدبرنا هذا الاقتباس وجدناه من صميم كلام ابن حيان، ذلك أن ابن مسعود لم يلحق زمن الفتنة، فظهر بذلك أن هذا النقد اللاذع للبربر العدويين هو من نفثات أبي مروان التي تكررت منه في مواضع عدة.

إننا لم نجد ابن حيان أكثر نقدا لجماعة كما وجدناه في نقده للبربر العدويين، ونجد هذا تقليدا قديما سارت عليه أهل الأندلس وبخاصة كتابها، حتى أنه تابعهم عليها بعض من ينسب إلى البربر²⁸، وقد عد بعض الباحثين هذه النزعة الحيانية نوعا من الكراهية²⁹، وقيل الاحتقار³⁰،

وقيل الازدراء الشديد³¹، وقيل «بربروفوبيا»³² واضحة المعالم.

لكننا نجد ابن حيان شديد الانتقاد أيضا لجماعات أخرى من المجتمع الأندلسي وغيره، وإن بحدة أقل، كنقده للعامة من أهل قرطبة وغيرها، وهو في ذلك ينقل فيها أشد أوصاف الاحتقار والازدراء من مقتبساته، ولعله أسهم فيها بقلمه كما أسهم في غيرها، ومن ذلك الوصف الشنيع والنقد اللاذع الذي وسم به الثوار الربضيين من أهل قرطبة في ثورتهم على الحكم دون انصاف اقتباسا عن التاريخي أحمد بن محمد بن خلف الوراق، وهو قوله: «كان أكثر أهل الربض الكبر... سواما طغاما جهالا أجلافا، أولى استحفاف بالسلطان، وجرأة عليه، وتحصيل لأخباره وطعنان في سيرته، لا يشكرون له نعمة، ولا يغمضون له عن عورة، ولا يعتقدون له هيبة»³³، وقد سود ابن حيان في مثل هذا أشياء كثيرة في تنقص العامة ونقدها بأقبح الأوصاف.

ومثل ذلك وجدناه نقالا لما انتقدت به العبيدية العدوية من روايات وأخبار على السنة أصحابها من الخلفاء والأمراء وصفا لمثالبها، وكأنها يتابع أصحابها فيما وصفوه، ويناغيههم فيما اعتزموه، ومن ذلك الكتاب اللاذع في الطعن في المشاركة كما وصفوا به في ذلك الزمان لموسى بن أبي العافية صاحب الدعوة الأموية بالغرب الذي جاء فيه: «ولقد أخبرني رجل من حجاج غربنا أنه مشى في المهديّة يوما، حتى أقبل ابن أحمد الوزير (يعني وزير العبيدية)، ورجل يقرأ علانية «أفلا يتدبرون القرآن، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا» فقال له ابن أحمد علانية: فقد تدبرناه يا كشيخان، فوجدنا فيه اختلافا كثيرا»³⁴، وقد أورد في مثل هذا روايات كثيرة من رسائل الأمراء العدويين والأموية.

كما وجدناه ينحو إلى الانتقاد الفردي الذي يراد به الجماعة، ومن ذلك النقد المشبع الذي جمعه في خبر المتكلم الجدلي محمد بن عبد الله بن مسرة القرطبي، سود فيه عشر صفحات في خبره وخبر مذهب، حملت ألفاظا لاذعة، وأحكاما مبقة، كقوله نقلا عن غيره وربما كان من زياداته اللفظية: «الظنين المرتاب»، «المراي بالعبادة»، «المنطوي على دخل السريّة»، «تواري في شعب الزهاد، وتذرّع بها إلى القدح في السنة»، «كان يستهوي العقول ويصيد الأفئدة»³⁵... ويظهر ابن حيان هنا كالمُدافع عن معتقد السنة والجماعة، على أن نقده لم يأت فيه من بيان معتقد ابن مسرة ما يشفي الغليل، وقصارى ما أورده عنه وصفه له بانتحال مذهب المعتزلة، وبعض منازعهم في الاعتقاد، مما يرشد ربما إلى قلة غوصه في هذه المعاني، لكنه دون شك رمى من وراء الطعن في هذا الرجل ونقده مساس مذهب برمته، ذلك أن هذا المذهب كان لا يزال

قائماً في بعض نواحي الأندلس زمن أبي مروان³⁶.

وجملة القول أن ابن حيان قد أظهر من خلال نقوده التاريخية فكراً ذا نفس قوية، ميالة لانتقاد الرجال، وإصدار الأحكام العلمية والأخلاقية عليهم فيما انتحلوه من المذاهب المعرفية، ونزعوا إليه من الأعمال السياسية، على أن نقوده هذه لا تقوم من حيث صحة الحكم أو خطئه إلا تقويم مذاهب أهل الاجتهاد، ولا يحتمل فيها صاحبها إلا ما حمل فيه غيره فيما اجتهد فيه أخطأ أو أصاب.

ج- نقد الأحداث (الأخبار): لم يهتبل ابن حيان بنقد الأحداث والأخبار القدر الذي نزع فيه إلى تحقيقها، إذ إكتفى في الأغلب بإيرادها برواياتها المختلفة محققاً لأصولها دون كبير تدخل في انتقادها إلا في القليل النادر، على أن هذه النقود للحوادث والأخبار قد وردت منه في مواضع مخصوصة هي:

1. نقود للحوادث و الأخبار الطاعنة في الأموية؛ وقد سبق أن ذكرنا خبر الأمير محمد بن عبد الرحمن في كلفه بالزمز والزمارين الذي أورده ابن حيان من رواية عبادة الشاعر، وطعن فيه بما فيه من التحامل على البيت المرواني من أصحاب الخبر المنتسبين لبيت آل عبادة؛ فوجدناه هنا دأبا عن مواليه فيما تنقصوا به، وقد وجدنا نفس هذا الاتجاه المولوي في النقد عند صاحب الأخبار المجموعة حيث يقول في تحليل خبر ثورة بربر المغرب على الدولة الأموية المشرقية، «وقد يقول من يطعن على الأئمة أنهم خرجوا ضيقاً من سير عمالهم، وأن الخليفة وولده كانوا يكتبون إلى عمال طنجة في جلود الخرفان العسلية، فتذبح مائة شاة فرما لم يوجد فيها جلد واحد، وهو قول أهل البغض للأئمة»³⁷، ووجدنا هذه النزعة المولوية مستشرية عند الكثير من التاريخيين، وهي نزعة رديئة في التاريخ صاحبها البعد عن الموضوعية، وقلة النصفة، والإغراق في العصبية النسبية أو الفكرية أو الدينية.

2- نقود لحوادث الفتن و العصبيات و السياسات؛ وهي انتقادات للوضع السياسي المؤرخ أو على خصوص سياسات الأمراء والخلفاء الأندلسيين؛ فمن ذلك انتقاد بشاعة عمل الحكم الربضي فيمن قام بالموامرة عليه من وجوه قرطبة سنة 189 هـ (804 م) فيما عرف بالهيج، حيث قال أبو مروان في نقده: «وبطش بهم بطش الجبارين، و جمع لهم ما بين سفك الدماء، وفضاعة التمثيل، فكوى بهم قلوب أهل مصرهم أجمعين»³⁸، وظاهر من لفظه استشناعه لهذا العمل الذي كوى قلوب القرطبيين، ولعله يلمح بذلك إلى أنه كان من أسباب القومة الكبرى لأهل

الربض التي انجلت على هدمه ونفي أهله.

ونجد هذا الضرب من الانتقادات للأمراء يتكرر كثيرا في مؤلفات ابن حيان، كما في خبر جلب «الخليفة» الحكم المستنصر لبربر العدو³⁹، وخبر اجتلاب المظفر بن أبي عامر لبربر صنهاجة⁴⁰، فابن حيان في هذا الباب يعمل فكره كمنظر سياسي خبر الأمور وعرف إلى ما تنزع إليه من فساد الأحوال، على أننا لحظناه في الباب نفسه غير صريح النقد ولا شديد اللوم، بل يأخذ فيه مأخذا وسطا بعيد عن الامتناع، قريب من اللوم، على أنه لم يسلم من المخالفة من التاريخيين في بعض نقوده، كمخالفة ابن بلقين له في سياسة جلب البربر التي انتهجها الأندلسيون والحاجب المنصور بن أبي عامر، فأثنى عليها وباركها، بل جعلها من أوكد الأسباب في الحفاظ على بلاد الأندلس، ودراء الحملات النصرانية عليها، وهنا نلمح مدى أهمية الفروق الاجتماعية للتاريخيين الأندلسيين في التدوين التاريخي، والنقد للحوادث، واستجلاء غاياتها، وآثارها المتعلقة بمجتمعهم.

ووجدناه أيضا منتقدا للأحوال العامة متشائما منها، ويعبر عن ذلك في بعض تعاليقه لما يورده من الأخبار، كقوله في خبر إرادة عمر بن عبد العزيز إجلاء المسلمين من بلاد الأندلس: «وكان من رأيه أن ينقل المسلمين عنها لانقطاعهم وبعدهم عن أهل كلمتهم، قال: و ليت الله تعالى أبقاها حتى يفعل، فإن مصيرهم مع الكفار إلى بوار، إلا أن يستنقذهم الله تعالى برحمته»⁴¹.

و مع قلة أوجه النقد للحوادث عنده، وجدناه قليل النقد لبعض الأخبار التي مال إلى اجتلابها في مقتبسه، مما شابها الإغراب الأسطوري، أو ما اندرج تحت الروايات الشعبية ذات الصفة الخيالية⁴²، والملاحظ أن هذه الروايات الأسطورية والشعبية تكثر في التراث التاريخي الأندلسي في المراحل المتقدمة من تاريخ العدو الأندلسية، وخاصة في أخبار الفتح، وقد حملت المادة التاريخية الحيانية في المقتبس في أجزائها الأولى حول الفتح أكثر هذه المادة، كما لا نشك أنه لم يتعرض لها بالنقد أو النظر.

ولنا من هذا الضرب من الأخبار خبرين مميزين، الأول في خبر قتلى بلاط الشهداء (114 و/732 م)، الذي قال فيه بعد إيراده: «فيقال: إن الآذان يسمع بذلك الموضح إلى الآن»⁴³، و بين أسطورية هذا الخبر، فإننا وجدنا مواضع جليلة كغزوتي بدر وأحد، وغيرهما لا يسمع فيها مثل ذلك، والثاني خبر اللواء الأموي بالأندلس الذي أرخ له ابن حيان، وذكر خبر ضياع بقاياها وحزن الأمير محمد بن عبد الرحمن عليه، قال في الخبر: «وانفتقت عليه إثر ذلك الفتوق العظام،

وكانوا يرون أنه جرت بسبب اللواء، لأنه لم ينهزم قط جيش كان تحته، على ما اقتضته حكمة الله تعالى التي لا تتوصل إليها الأفكار»⁴⁴، إن هذه الرواية لتذكرنا بخبر تابوت بني إسرائيل الذي كانت به تنصر في حروبها. ومثله أيضا خبر قول الجنى للشعر زمن حروب العرب والمولدين بالأندلس⁴⁵، والذي يذكرنا بخبر الجنى وقوله الشعر في هجرة النبي صلى الله عليه وسلم؛ ومثله خبر تعليم الجن الغناء لزياب⁴⁶، وخبر بلوغ نبأ النبي صلى الله عليه وسلم لملك القوط، وذكر قومسه بوشوك تغلبه على بلاد الأندلس فيما عنده من علم⁴⁷... وأضرب هذا كثيرة تبين أهمية هذا النوع من الأخبار في المادة التاريخية الأندلسية عموما، والحيانية على وجه الخصوص.

كما وجدنا أبا مروان شديد الميل إلى إيراد أخبار الحدثان⁴⁸ والتنبؤات على أنها كاملات، لا يلقي عليها نظر الناقد، ولا فكر الناظر، و تحظى عنده بأهمية ملحوظة قد أورد منها الكثير لا في مقتبسه فحسب بل أيضا في تاريخه المتين، ولنا من أمثلتها الشيء الكثير، فمما جاء منه في المقتبس خبر تنبأ الشاعر عبد الله بن الشمر بمدة دولة الأموية بالأندلس في قوله:

يَا سَائِلِي عَنْ مَدَى أَمْلَاكِ قُرْطَبَةَ	عِنْدِي بِذَاكَ لَهُمْ عِلْمٌ وَ آثَارُ
إِذَا أُدِيرَ عَلَيْهِمْ سِتَّةَ رُحَلٍ	لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ بِأَرْضِ الْعَرَبِ دِيَارُ
وَأَيُّهُ الْقَوْمُ فِي تَغْيِيرِ مُلْكِهِمْ	إِذَا عَتَوْا وَطَعَوْا فِي الْحُكْمِ أَوْ جَارُوا
فَقَطَّ يَعُمُّ بِلَادَ الْعَرَبِ قَاطِبَةً	حَتَّى تَوَدَّعَ مِنْهَا الْأَرْضُ أَمْطَارُ ⁴⁹

ومثله في أخبار الحدثان خبر الأمير عبد الرحمن الداخل وإعلام عمه مسلمة بن عبد الملك المرواني بملكه بلاد الأندلس وتجديده ملك بني أمية⁵⁰، وكذا خبر اليهودي الحدثاني صاحب عبد الرحمن بن حبيب الفهري والي إفريقية المتحدث بتغلب القرشي المرواني ذي الضفيرتين على الأندلس والمورثها لعقبه⁵¹.

ونحن نجد هذا النوع من الأخبار ذات الطابع الحدثاني قد كثر إيرادها من التاريخيين الأندلسيين، عبر كل مراحل التدوين التاريخي، ابتداء بعبد الملك بن حبيب الذي منحها جانبا مهما من تاريخه، وقلده في ذلك جمهرة التاريخيين بعده⁵²؛ وقد علل بعض الباحثين هذا الاهتمام بالجانب الأسطوري و الحدثاني في تراث ابن حيان بأنه طبيعي في عصره، وأن له دلالة صادقة على عقلية البيئة ووجدانها، وموقفها من الظواهر والأحداث، وتعبيرها عن هموم الجماعة ومواجهتها وأمانيتها⁵³. لكن ومع هذا يبقى هذا الجانب عنصرا هاما افتقده ابن حيان

في باب النقد التاريخي، ولو أنه أغفل كتابه من هذه الروايات المستغربة والمستطرفة لكان أخرى به كمؤرخ ينقب عن خيار الأخبار لا بعيدا عن المعقول المسلم، أو كان يلقي عليها شيئا من نصاعة ذهنه، وبراعة فهمه فيجالي عنها بعض ما إغتمرها من خيال ممجد.

وعلى أية حال، قد بلغ ابن حيان في جانب النقد التاريخي في مقتبسه - على قلة تدخلاته في الأحداث والأخبار التي يوردها - مبلغا حسنا يجعله في مصاف المجودين من التاريخين، ولعله ارتقى به في بعض الأحيان إلى مصاف المؤرخين المحققين، وهو دون شك لم يكن في أسوأ أحواله من التاريخيين أهل السرد للرواية دون تمحيصها، أو كما يسميهم هو نفسه «أصحاب الخبر».

الهوامش

- 1- ابن حيان، المقتبس، تحقيق ب. شلميتا وف. كورينطي وم. صبح (ج4)، المعهد المصري الإسباني العربي للثقافة، كلية الآداب بالرباط، مدريد، 1979م، ج4 ص 38.
- 2- نفسه، ج4 ص 39.
- 3- نفسه، ج4 ص 278.
- 4- نفسه، ج4 ص 321.
- 5- نفسه، ج4 ص 445.
- 6- ابن حيان، كتاب المقتبس من أنباء أهل الأندلس، حققه وقدم له وعلق عليه محمود علي مكي (ج2)، طبعة دار الكتاب العربي، بيروت، 1393هـ - 1973م ج2 ص 277.
- 7- نفسه، ج4 ص 9.
- 8- نفسه، ج2 ص 119.
- 9- نفسه، ج2 ص 201.
- 10- نفسه، ج2 ص 23.
- 11- نفسه، ج2 ص 290.
- 12- نفسه، ج2 ص 150.
- 13- نفسه، ج2 ص 95.
- 14- نفسه، ج2 ص 59.
- 15- ابن بسام، أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني (ت542هـ/1148م)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، طبعة دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، 2000م، ج1 ص 138 - 139.
- 16- ينظر نقده التطبيقي المميز للأخبار المتنقصة للأمية المشرقية: جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار المعارف بمصر، 1382هـ - 1962م، ص 79 - 80.
- 17- ينظر في هذا باب الطعن والذم عند ابن عبد البر: جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله، ضبط عبد الرحمن محمد عثمان، المطبعة السلفية، المدينة المنورة، الطبعة الثانية، 1388-1968، ج2 ص 186.
- 18- ينظر باب الذم الذي خصصه للأمير عبد الله: ابن حيان، كتاب المقتبس في تاريخ رجال الأندلس، تحقيق ملشور م. أنطونية (ج3)، طبعة بولس كتنز الكتبي، باريس، 1937، ج3 ص 39.

- 19 نفسه، ج 4 ص 38.
- 20 نفسه، ج 4 ص 39.
- 21- ابن حيان، السفر الثاني من كتاب المقتبس، تحقيق محمود علي مكي (ج1)، مركز الملك فيصل للبحوث و الدراسات الإسلامية، 2001م، ج 1 ص 119.
- 22- ابن حيان، المقتبس في أخبار بلد الأندلس، تحقيق عبد الرحمن علي الحجي (ج5)، دار الثقافة، بيروت، 1965م، ج 5 ص 193.
- 23- ابن بسام، المصدر السابق، ج 4 ص 7؛ المقري، أبو العباس أحمد بن محمد القرشي التلمساني (ت1041هـ/1632م)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق إحسان عباس، طبعة دار صادر، بيروت، 1968، ج 3 ص 85.
- 24- ابن حيان، المصدر السابق، ج 2 ص 166.
- 25- نفسه، ج 4 ص 139.
- 26- عبد القادر زمامة: «ابن حيان وأهل العدو»، المناهل، عدد خاص بندوق ابن حيان، ص 437.
- 27- ابن حيان، المصدر السابق، ج 4 ص 299-300.
- 28- ابن عذاري المراكشي (كان حيا سنة 712هـ/1312م)، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ج.س. كولان وإيفي بروفنصال، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الثالثة، 1983م، ج 2 ص 21.
- 29- عبد الهادي التازي: «العلاقات المغربية الأندلسية من خلال «المقتبس» لابن حيان»، دراسات تاريخية، العددان 25-26، كانون الثاني-أيار 1984، ص 429.
- 30- Boch Vila, Jacinto: "El Elemento Humano Norteafricano en la historia de la espana musulmana", in Cuadernos de la biblioteca espanola de tetuan, n° 2, Nov 1964, p. 33-35.
- 31- بوباية عبد القادر، البربر في الأندلس و موقفهم من فتنة القرن الخامس الهجري (الحددي عشر الميلادي)-300 422هـ-/912 1031م، رسالة دكتوراه دولة، جامعة وهران، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، قسم التاريخ، إشراف غازي جاسم الشمري، السنة الجامعية 1422-1423هـ-/2001 2002م، ص 258.
- 32- Levi provençal,e ,Histoire de l'Espagne musulmane; e.d. g-p.maisonneuve, ed. e-j, 32 .brill,leiden,19, p.74.
- 33- ابن حيان، المصدر السابق، ج 1 ص 169.
- 34- نفسه، ج 4 ص 373.
- 35- نفسه، ج 4 ص 20.
- 36- ابن حزم، علي بن أحمد بن سعيد الفارسي، الفصل في الملل والأهواء والنحل، مكتبة الخارجي، دون تاريخ، ج 4 ص 67، 151.
- 37- مجهول، أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بها، تحقيق إسماعيل العربي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989م، ص 111.
- 38- ابن حيان، المصدر السابق، ج 1 ص 121.
- 39- نفسه، ج 5 ص 189.
- 40- ابن بسام، المصدر السابق، ج 4 ص 59-60، 61-62.

- 41 - المقرئ، المصدر السابق، ج 3 ص 15.
- 42 - ذهب خوليان ريبيرا إلى أن كتب التاريخ الأندلسي قد تضمنت حشدا من القصص والأساطير، بعضها يعود إلى أصول مشرقية، وبعضها ذي أصول إسبانية مسيحية، ورجح أن هذه الأخيرة كانت متداولة على ألسن الناس باللغة الرومانشية وأن الأندلسيين أدرجوها بالعربية في أخبارهم وأشعارهم (أحمد مختار العبادي: «التأثير المتبادل في الرواية التاريخية العربية الإسبانية»، في مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمديرد، عدد 24، سنة 1987-1990م ص 35).
- 43- المقرئ، المصدر السابق، ج 3 ص 15.
- 44 - ابن حيان، المصدر السابق، ج 3 ص 57.
- 45 - نفسه، ج 3 ص 63.
- 46- نفسه، ج 1 ص 316.
- 47- نفسه، ج 4 ص 275.
- 48- علم الحدثان علم ينظر في التنبآت بظهور الملوك وذكر لآماد الدول، وبقائها وعدد ملوكها وأسمائهم وحروبها وملاحمها وفتنها، وكان رجاله كهان وعرافون ومنجمون و عرف في الإسلام من الأحاديث النبوية لما يستقبل من الزمان، ومثلها أقوال الصحابة والتابعين و«الأولياء». وقد ولع به الملوك ولهذا انصرفت العناية إليه بشدة، وأشهر رجال هذا العلم في الإسلام كعب الأخبار، ووهب بن منبه، و بالأندلس الحكم المستنصر، وفرقد بن عبد الله الحرشي، ومحمد بن عبد السلام التدميري (ابن خلدون، المقدمة، ص 330، 439؛ المقرئ، نفح الطيب، ج 3 ص 97؛ ابن الفرضي، المصدر السابق ص 97؛ ابن بشكوال، المصدر السابق، ص 387).
- 49- ابن حيان، المصدر السابق، ج 1 ص 395.
- 50- المقرئ، المصدر السابق، ج 32 ص 27.
- 51 - نفسه، ج 3 ص 28-29.
- 52 - ينظر في مثل هذا: ابن حبيب، عبد الملك بن حبيب السلمي، كتاب التاريخ، تحشية سالم مصطفى البدرى، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1420-1999م، ص 137؛ مجهول، أخبار مجموعة ، ص 125، 129-140؛ ابن عذاري ، المصدر السابق، ج 2 ص 17، 18، 22، 257، 259؛ ابن الخطيب، لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد السلماي(ت776هـ/1374م)، تاريخ إسبانيا الإسلامية، أو كتاب أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الإحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق إ. ليفي بروفنسال، دار المكشوف، بيروت، الطبعة الثانية، آذار 1956م، ص 129؛ ابن بسام، المصدر السابق، ج 4 ص 44؛ ابن الأبار، المصدر السابق، ج 1 ص 270.
- 53- عائشة عبد الرحمن، المرجع السابق، ص 29.